المحاضرة الثامنة: الفكر السكاني عند مالتوس

تمهيد: مكن التوسع الناشئ في الاهتمام بمجال و قضايا السكان، من توسع دوائر البحث و الاجتهاد فيه، و بروز العديد من الإسهامات النظرية التّي سعت إلى صياغة تفاسير مضبوطة و دقيقة للسياق العام للتغير الحاصل للظاهرة السكانية، و التّي من جملتها سنذكر البعض الآتي منها.

1- من هو توماس روبرت مالتوس؟ ولد مالتوس بإنجلترا في سنة 1766 و توفي فيها سنة1834، كان كاتبا متفوقا في جامعة كمبريدج، و التحق كاهنا بكنيسة انجلترا عام 1797، كما عمل أستاذ للتاريخ و علم الاقتصاد من عام 1806 إلى غاية1834، في زمن كان فيه التنظيم الاجتماعي و الاقتصادي في أوروبا يشهد تغيرات هامة، أدت لحدوث ارتفاع نسبي بطيء في معدلات السكان، من خلال التحسن المسجل في إنتاجية الإنسان في قطاعي(الزراعة و الصناعة)، و التّي نجم عنها تحسن بطي في الأحوال المعيشية لقطاع واسع من السكان. يعتبر مالتوس لدى الكثير من المهتمين بالمسألة السكانية المؤسس الحقيقي لهذا الحقل من الدراسات، و ذلك بفعل التجائه لاستخدام الأسلوب العلمي و الإحصاء لدعم أفكاره حول حركة السكان، ونموهم و تقصي الحقائق و التغير.....فضلاً على نجاحه في إدخال الدراسات السكانية إلى ميدان علم الاجتماع. و تعد نظريته في هذا المجال حجر الزاوية بين جميع النظريات السكانية القديمة منها و الحديثة، و ذلك بسبب امتداد ظلها على الفكر السكاني، و تأثيرها في الجوانب الفكرية، الاقتصادية، الاجتماعية و السياسية إلى غاية يومنا الآن.

2- ظروف تبلور الفكر المالتوسي: تضافرت مجموعة مختلفة من العوامل بلورة الفكر المالتوسي، و إسهامه في الارتقاء بالفكر السكاني من خلال الأفكار التّي طرحها، و التّي مثلت تحولاً بارزاً في ميدان الدراسات السكانية[1]، و هي التّي يمكن حصرها في:

أ• الزيادة في أعداد السكان في بقاع العالم إبان القرن19، و ما ترتب عليها من بروز مجموعة من المشاكل السكانية الخطيرة ك: البطالة، السكن، الفقر، الانحراف.....

1 - طافر زهير، النظريات السكانية و انعكاساتها على الاقتصاد و المجتمع، دراسة مقارنة، مجلة الباحث الاجتماعي، العدد10، جامعة بشار، الجزائر، سبتمبر2010، ص69.

ب• الأزمة السياسية و السوسيواقتصادية التّي خلفتها الثورة الفرنسية، بفعل الأفكار التّي حفلت بها و التّي لم تلقي الترحيب عند مالتوس و أمثاله من المدافعين بشدة عن النّظام السياسي في انجلترا.

ت• تقدم البحث في ميادين الإحصاء، ما سمح باكتشاف مناهج جديدة تفيد في تحليل اتجاهات الخصوبة، و تزايد استخدام المسوح الميدانية، لتحديد العوامل المؤثرة في توقيت المواليد و معدلاتها.

ث• التقدم المسجل في العلوم البيولوجية، و التّي أعدت معلومات حول صفات السكان (النوعية، الفيزيقية و النفسية)، فضلاً عن دراسة السلالات البشرية.

3- مضمون نظرية مالتوس: قدم مالتوس أفكاره الأولى في ميدان الديموغرافيا، في كتابه أصل المشكاة السكانية An Essay on the principle of population و الذي نشره سنة 1789 بدون توقيع، و ذلك نظرا لما أنطوى عليه من أفكار متناقضة مع نشاط مؤلفه، باعتباره كان قسا و مدرسا في جامعة دينية بكامبريدج، قيل أن يعيد نشره مرة أخرى منقحا و مذيلا[2]، و هو العمل الذي أكسبه شهرة واسعة و صيت ذائع بعدها، و ذلك إلى جانب عدد أخر من الأعمال أبرزها: رسالة في الاقتصاد السياسي في سنة 1803، ملاحظات عن آثار القوانين الغلال في عام 1814، و من بعدهما بحوث في طبيعة و تطور الريع في سنة 1815، و هي الأعمال التّي لم يركز فيها جهده فقط على وصف الزيادة السكانية أو نقصانها، بل ضمن إياها أيضا رد لأراء بعض كتاب اليوتوبيا في ذلك العصر، من أمثال: جودوين، ديفيد، ساي، كوندرسيه[3].....و الذين كانوا يرون أنّ جميع مشاكل المجتمع سوف تنتهي، بمجرد ما يتم القضاء على النظام الاجتماعي القائم، و هو ما كان يرفضه مالتوس جملة و تفصيلا، معتبرا أنّ مبدأ السكان يلعب دور هاما في هذه القضية، مخضعا تطور السكان و تزايدهم لقانون عام، قام فيه بالمقارنة ما بين الزيادة الطبيعية و الموارد المعيشية، محذرا من مغبة المخاطر الناجمة عن كثرة النسل، و ذلك في قوله:" إني أؤمن بمسلمتين أساسيتين،

---

2 – طافر زهير، مرجع سابق، ص69.

3 – محمد فاروق الشبول، النمو السكاني و التنمية، من منظور الاقتصاد الاسلامي، دار عماد الدين للنشر، عمان، الأردن، 2008، ص41.

الأولى أنّ الطعام ضروري لوجود الإنسان، و الثانية أنّ الهوى و العاطفة بين الجنسين أمر ضروري و سيبقى على حالته الراهنة ". و كان الغرض الأساسي من إجراء هذه الدراسة، هو الإجابة على سؤالين حددهما مالتوس و هما:

- ما هي النتيجة الناجمة عن زيادة السكان إذا تركت تعمل بلا مانع؟
- ما هي الزيادة في غلة الأرض في أحسن ظروف الكفاح الإنساني لزيادتها؟

و قد خلصت هذه الدراسة إلى اعتماد مجموعة من النتائج، أهمها:

أ• هناك تناسب طردي بين حجم السكان و الموارد الغذائية، و إنّ الزيادة في عدد السكان لابد أن تكون مصاحبة للزيادة في الموارد الطبيعية.

ب• سبب الفقر في المجتمع هو أنّ عدد السكان أكثر من العدد الكافي لإشباع حاجات السكان.

ت• إنّ قدرة الإنسان على التناسل أكبر من قدرة الأرض على الإنتاج ما يتطلبه البقاء الإنساني من غذاء، حيث تبين أنّ الزيادة السكانية تتضاعف في كل 25سنة ما لم تواجه صعوبات، و أنّ سكان العالم يزدادون عامة على أساس متتالية هندسية(1-2-4-8-16-32.....)، بينما تطرد الزيادة في الموارد الغذائية على أساس متتالية عددية و حسابية(1-2-3-4-5-6.....)، و هو ما يعني أنّ سكان العالم سيواجهون أجلا أم عاجلا مشكلة نقص الغذاء. حيث لاحظ مالتوس أنّ القمح كان مطلوبا بشدة في تلك الأيام، و ذلك نظرا لكثرة عدد السكان ببريطانيا، لذلك تنبأ أنّ كل زيادة في عدد السكان سوف تصاحبها زيادة في الطلب على القمح بالذات، لذلك ذهب إلى القول بأنّ الزيادة في عنصر رأس المال و عنصر العمل تؤدي إلى الزيادة في إنتاج المحصول، ولكنّها تصل بعد فترة إلى العجز لأنّ مساحة الأرض المزروعة تظل كما هي، لذلك فمهما زاد عنصر رأس المال أو عنصر العمل، فإنّ الأرض لن تنتج المزيد لأنّه ليس هناك زيادة في مساحة الأرض المستغلة.

ث• من أجل التهوين من الآثار المخيفة لزيادة السكان، حدد مالتوس نوعين من الموانع و التّي من شأنها أن تساعد على الحد من الزيادة السكانية، الأولى و سميت **بالموانع الوقائية**، و هي

التّـي تعرقـل نمـو السـكان بأسـلوب غيـر مباشـر، مـن خـلال إسـهامها فـي خفـض نسـبة المواليـد، و هـي تعتمـد علـى إرادة الإنسـان فـي منـع الشـر قبـل وقوعـه، فـإذا كـان قـادرا ماديـا علـى الـزواج فعليـه أن يتـزوج، أمّـا إذا كـان غيـر قـادر علـى إطعـام الأسـرة التّـي يزمـع تكوينهـا، فعليـه تـأخير سـن الـزواج، أمّـا اللجـوء لإهمـال العلاقـات الجنسـية، كمـا تتضـمن كـذلك الرذيلـة، العلاقـات الجنسـية غيـر الطبيعيـة.....أما الثانيـة فتسـمى **بـالموانع الإيجابيـة**، وهـي تشـمل كافـة العوامـل التّـي تـؤدي إلـى قصـر فتـرة الحيـاة و زيـادة نسـبة الوفيـات، مـن شـاكلة الأمـراض و الأوبئـة، العمـل بـالمهن غيـر الصـحية، الفقـر، الحـروب و المجاعـات، اكتظـاظ المـدن بسـكانها، التربيـة السـيئة للأطفال[4].....

و قـد انتقـد مـالتوس كثيـرا فـي هـذا الإطـار، الفقـراء الـذين يتزوجـون كـي ينجبـوا أطفـالا لـيس لهـم مكـان شـاغر علـى مائـدة الطبيعـة، و لـيس لهـم الحـق فـي طلـب المعونـة مـن المؤسسـات الخيريـة و غيرهـا مـا دام قـد اقترفـوا ذنبـا بحـق أنفسـهم، بمعارضـتهم قـوانين الطبيعـة و عـدم الإصـغاء لصـوت العقـل، حيـث يقـول فـي هـذا الصـدد: " إنّ الفقيـر يـتهم راعيـا قريتـه و جمعياتـه الخيريـة لعـد إغاثتـه، و يـتهم الأغنيـاء الـذين لا يمـدون لـه يـد المسـاعدة، و يـتهم المؤسسـة الاجتماعيـة بعـدم إعالتـه، و حتّـى قـوانين السـماء يتهمهـا، لأنهـا وضـعته فـي أدنـى السـلم الاجتمـاعي محاطـا بـالفقر و البـؤس، و هـو فـي محاولتـه للبحـث عـن مصـدر بؤسـه و شـقائه ليوجـه إليـه الاتهـام، فإنـه ينسـى أنّ يوجـه اتهامـه إلـى المصـدر الوحيـد لمـا يعانيـه مـن فقـر و تعاسـة، و هـذا المصـدر هـو نفسـه و هو وحده الذي يستحق اللوم و العقاب"[5].

4- تقيـيم عـام لنظريـة مـالتوس: تسـبب التضـخم السـكاني الـذي سـجلته أوروبـا خـلال فتـرة وجيـزة مـن القـرن19، و إسـهامه بشـكل بـارز فـي النهضـة الاقتصـادية التّـي أحرزتهـا، فـي دحـض مصـداقية هـذه النظريـة و توجيـه سـهام النقـد لهـا، إزاء عديـد المسـائل التّـي انطـوت عليهـا، و التّـي من أبرزها ما يلي:

---

4 – السيد طارق، علم اجتماع السكان، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 2008، ص75-76.

5 – فراس البياتي، مورفولوجيا السكان، موضوعات في الديموغرافيا، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، 2009، ص56.

أ• استندت أفكاره إلى بعض الافتراضات المنافية للعلم و المخالفة للواقع، فمثلا قانون التكاثر الهندسي للسكان لا يصح إلاّ في حالة لم يعترضه فيها أي عارض، الأمر الذي يعني أنّ إطلاق صفة القانون عليه يظل موضع شك، إذ أنّ التعدادات المختلفة للسكان أثبتت خطأ ذلك. فقد كان عدد سكان العالم في عصره حوالي 01مليار/ن، و بعد قرنين أصبح يقدر ب06ملايير/ن، بينما حسب مالتوس و بناءا على متتاليته الهندسية السكانية، فمن المفترض أن يضاهي هذا العدد حاليا256مليار/ن[6]. كما ارتكب خطأ علميا فادحا، حين أراد جعل أفكاره قانونا عاما يسري في كل زمان و مكان، و قد تناسى بأنّ هناك فواصل زمنية عديدة، شهدت تراجعا في النمو بسبب الظروف المحيطة بها.

ب• استند مالتوس لإثبات صحة قانونه بشأن الزيادة في إنتاج الغذاء، حسب المتتالية الحسابية على مجموعة من الأفكار غير الدقيقة، و التّي من بينها نذكر مايلي:

- هذا القانون لكي يتحقق، يتعين التسليم بأنّ وسائل الإنتاج لا تتطور، كما هو الشأن بالنسبة لقانون تجانس وحدات عناصر الإنتاج المتغير، و ثبات عناصر الإنتاج الأخرى، و هي افتراضات غير واقعية. إذ أثبت الواقع أنّ الإنتاج الغذائي يمكن أن يستمر في الزيادة على نحو تدريجي، و بشكل قد يفوق حتّى نمو السكان، بفضل التوسع العمودي و الأفقي للإنتاج. أي أنّ طرحه قد مال للأخذ بالتحليل الاستاتيكي، و ذلك خلافا لما أدعاه بشأن وجود علاقة طردية بين الإنتاج الغذائي و السكان، و أنّ هناك الكثير من الدراسات و الوقائع التاريخية التّي أثبتت أن مثل هذه العلاقة كثيرا ما تكون عكسية، كما حصل في سهول أمريكا أين أدت الزراعة لزيادة الثروة، في حين ظل ازدياد السكان بمعدلات أقل[7].

- اعتبر النشاط الزراعي هو المصدر الوحيد للغذاء، مهملا كافة المصادر الأخرى التّي تسهم في زيادة الموارد الغذائية، سواء بشكل مباشر مثل قطاع الصناعة الغذائية، أو بشكل غير مباشر من خلال قطاع الصناعات التحويلية، الذي يدعم النشاط الزراعي و يمده بكافة المستلزمات الضرورية لزيادة الإنتاج، كما يسهم هذا القطاع في خلق فرص عما إضافية.

---

6 – طافر زهير، النظريات السكانية و انعكاساتها على الاقتصاد و المجتمع، دراسة مقارنة، مجلة الباحث الاجتماعي، العدد10، جامعة بشار، الجزائر، سبتمبر2010، ص71.

7 – طارق السيد، علم اجتماع السكان، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، مصر، 2008، ص78.

- وجهة نظره للإنسان أحادية، إذ يعد مستهلكا فقط بينما الحقيقية أنّه منتج و مستهلك معا.

- استند في تفسيره ظاهرة الفائض السكاني إلى مفهوم الكثافة العضوية*، و يقود اعتماد هذا المفهوم للكثافة، إلى إهمال أهمية الطاقات الإنتاجية الاحتمالية لأنواع الأراضي الأقل خصوبة، و ما يمكن أن تسهم به في الإنتاج و خلق فرص العمل.

ت• ينبثق تصوره للمتغير السكاني على أنّه متغير مستقل، و أنّ عملية التكاثر البشري تعد عملية بيولوجية بحتة منعزلة كلية عن المحيط السوسيوثقافي و السياسي الذي يعيش فيه الإنسان، كما أنّ قانون " الغلة المتناقصة " الذي تحدث عنه، أهمل أثر التطور التكنولوجي في زيادة الإنتاج، و هو ما يبطل من الناحيتين النظرية و التاريخية الأساس الذي ارتكزت عليه هذه النظرية.

ث• أعيب عليه اعتماده المطلق على أفكاره غيره من المفكرين، حيث أتضح للكثير من الباحثين سيادة تشابه طاغي بين الأفكار التّي كان يروج لها، و بين تلك التّي طرحها من قبله كل من ريتشارد كانتيلون في كتابه " بحث في طبيعة التجارة بصفة عامة " المنشور في سنة 1755، و كذا جيمس ستيوارت في كتابه " مبادئ الاقتصاد السياسي" الصادر سنة 1767، و لكنّها لم تحظى بالشهرة نفسها التّي اكتسبتها على يد مالتوس فيما بعد، بفعل عدم توافر الظروف السوسيواقتصادية الملائمة[8]، الأمر الذي جعل البعض يذهب إلى التأكيد على أنّ مالتوس لم ينتحل هذه النظرية فقط بل اتهم بسرقتها.

ج• صياغة النظرية يشوبها الغموض، حيث لا يمكن التعرّف على مدى زيادة السكان في وجود الموانع أو عدم وجودها[9].

عير أنّ كل ذلك، لا يمكنه أن يشكل مبعث إنكار بالمطلق لبعض مزاياها على الأقل، و هي التّي كان لها دور رئيسي في إصدار ما يعرف بـCensus Act of في سنة 1800، و الذي

---

8 – محمد فاروق الشبول، النمو السكاني و التنمية : من منظور الاقتصاد الإسلامي، دار عماد الدين للنشر، عمان، الأردن، 2008، ص43.

9 – طارق السيد، مرجع سابق، ص78.

* يقصد بها العلاقة بين حجم السكان و مساحة الأرض الصالحة للاستغلال.

بموجبه باتت السلطات البريطانية تقوم و إلى غاية يومنا هذا، بإحصاء دوري للسكان في كل من انجلترا، اسكتلندا و بلاد الغال[10]. كما كان لها أثر بالغ في تغذية الكثير من الاجتهادات النظرية، فهي تعد بمثابة القاعدة الفكرية التّي قامت عليها التفسيرات اللاحقة، حول كبيعة العلاقة الأزلية القائمة بين الزيادة السكانية و التنمية، حيث تأثر بها الكثير من رواد العديد من الحقوق المعرفية لا سيما الاقتصادية منها، فمنهم من قبلها كما هي و منهم من ارتضى بقبول جزء منها أو بعض الأجزاء، لتكوين نظرياتهم الاقتصادية التّي عالجوا بها مستقبل النمو الرأسمالي[11].

10 – طافر زهير، مرجع سابق، ص72.

11 – حنان عبد الخضر هاشم، المشكلة السكانية و متطلبات التنمية الاقتصادية في البلدان النامية، رؤي نظرية جدل و جدل قائم، مجلة الغري للعلوم الاقتصادية و الإدارية، العدد08، ص93.